

المادة.. بنية وخواص

إسماعيل المقرئشي الشريف

باحث بالمهينة العالمية للإعجاز العلمي



إن نقاش أية قضية ينبغي أن يبدأ بالمسلم به وصولاً إلى المختلف فيه، ولما شك أن كل مسلم يعتبر مرجعيته التي ترفع الخلاف هي واضح الدلالة من كتاب الله وصحيح سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإجماع الأمة. أما غير المسلم فتقام عليه الحجة بما يراه ويحسه بنفسه وبالحجة العقلية ثم ينتقل معه من تلك المسلمات إلى نتائجها التي تلزمه بقبول الحق والإدعان له، وإلا كان معانداً بعيداً عن كل منطق ومنهج علمي.

ورجاء الوصول إلى ذلك فسألقي الضوء في هذه الأسطر على المادة لتتعرف عليها من حيث: معناها وماهيتها، وعناصرها، وخواصها، وحالاتها، وموقف الناس منها؛ إذ المؤمنون يرون أنها خلق من مخلوقات الله تعتبرها صفات العبودية من إيجاد وضاء وتسيير، وعبادة لله، كما قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ بخلاف من يرون أن المادة قديمة أزلية وأنها لا تفنى وإنما تتحول وتبقى. وأهمية التعريف بالمادة في معجم المصطلحات الكونية تكمن في خطورة هذه المقولة ومصادمتها للعقيدة الإسلامية، إضافة إلى كثرة ورودها في المصادر والمراجع العلمية؛ ورغم تراجع الماديين في هذا الوقت وبيان زيف كثير من مفترياتهم الإلحادية — إلا أن القول ببقاء المادة وعدم فناؤها لا يزال في مناهج بعض المسلمين!!

تعريف المادة:

المادة في اللغة: الزيادة المتصلة، وجمعها مواد؛ يقول أبو علي القالي: والمادة: كل شيء يكون مداداً لغيره، ويقال في بعض الكلام: دعوا في المضرع مادة اللبن، والمتروك من اللبن هو الداعية، وما اجتمع إليه المادة، والمأرأب أصل العرب ومادة الإسلام، فهذا هو معنى المادة في لغة العرب، أما معناها في اصطلاح أهل العلوم، فقد عرفوها بتعريفات أهمها: إنها الجوهر والأصل في تكوين الأشياء، أو هي الشيء الحسي الذي يدرك بإحدى الحواس الخمس كالحديد والماء والهواء، وعرفت بأنها: كل ما يتكون ويشغل حيزاً: أو ما يتكون منه جميع الأشياء، وصرح العلماء الماديون بأنها أزلية وأنها لا تتلاشى أو تفنى وإنما تتحول، وعرفها ابن سينا بقوله: إن المادة وإن كانت سبباً للجسم فإنها ليست سبباً يعطي الوجود بل سبب يقبل الوجود.

بنية المادة:

المواد العادية مكونة من ذرات، والذرة هي: أصغر عنصر يمكنه الدخول في تفاعل كيميائي لتكوين المركب.

وتحتوي الذرات على جسيمات تسمى: (البروتونات) و(النيوترونات) و(الإلكترونات) وتتكون البروتونات والنيوترونات من جسيمات صغيرة يطلق عليها (الكوارات) تربطها جسيمات تسمى (القلونات).

وتكون الذرات جسيمات كبيرة تسمى الجزيئات، وهذه المركبات إما عضوية أو غير عضوية. والعضوية هي التي يوجد معظمها في الكائنات الحية (حيوانية ونباتية) وتحتوي على ذرة الكربون وتتكون من جزيئات كبيرة قد تحتوي على آلاف الذرات.

عناصر المادة:

يقول العلماء الكونيون: إن ما في الكون ينقسم إلى مادة وقوة، فالذهب والنحاس مثلاً مادة، والحركة والكهرباء والحرارة قوة.

والقوة والمادة مختلفان ولكنهما متلازمان فلا توجد مادة في الكون الفيزيائي مستقلة عن قوة ولما قوة مستقلة عن مادة، ولكل من المادة والقوة خواص يشتركان في بعضها ويختلفان في البعض الآخر، وكان العلماء قديماً يظنون أن المواد يرجع تركيبها إلى

أربعة عناصر هي:

1- الماء. 2- التراب. 3- الهواء. 4- النار.

غير أنهم توصلوا في هذا العصر إلى أن المواد كلها — رغم اختلافها — ترجع في تركيبها إلى مائة وخمسة عناصر، والعنصر هو المادة التي لا يمكن تحليلها إلى مادة أبسط.

خواص المادة:

وللمادة نوعان من الخواص:

أ - الخواص الفيزيائية وتعرف بالحس.

ب - الخواص الكيميائية وتعرف بأمور كالوزن والكثافة.

وأهم خواص المادة:

1- اللون. 2- الرائحة. 3- الطعم. 4- القوّة. 5- الممتصات.

جوي. 4- خواص السوائل.

حالات المادة:

توجد المادة - عادة - في واحدة من ثلاث حالات هي:

1- المادة الصلبة الجامدة كالصخور.

2- المادة السائلة كالماء.

3- المادة الغازية كالهواء.

ومع معرفة العلماء لخواص المادة وحالاتها إلا أنهم لم يزالوا عاجزين عن معرفة كنه المادة التي تتركب منها الأشياء المحسوسة في الكون، وأهم ما يعنيننا هنا هو الموقف عند نقطتين — وأما ما عدا ذلك من نظريات فيمكن أن يقبل منه أو يرد:

الأولى: القول بأن المادة أزلية وأنها لا تتلاشى وتنفى وإنما تتحول، وهو ما يعبرون عنه تارة بحفظ المادة، أو قانون بقاء المادة، ويدعي بعض الماديين أن هذا التوهم من المسلمات العلمية!!

جاء في كتاب أسس المادية المدياكتيكية قولهم: ليس للكون نهاية والعالم أبدي وليس له بداية ولن يكون له نهاية.

الثانية: قولهم إن الحياة تكونت من المادة مباشرة بفعل الطبيعة على سبيل المصادفة، وإن الكون جميعه نشأ من المادة بطريق التوالد الذاتي بسبب الطبيعة.

ورغم بطلان هذه النظريات من الناحية الشرعية والعلمية فإنها لا تزال تدرس في بعض بلاد عالمنا الإسلامي!

الأدلة على حدوث المادة وفنائها:

إِنِ الْمُسْلِمِينَ يَكْفِيهِمْ فِي الْإِقْتِنَاعِ بِحُدُوثِ الْمَادَةِ مِنَ الْعَدَمِ وَفَنَائِهَا مَا وَرَدَ مِنْ أَدْلَةٍ كَثِيرَةٍ، قَالَ تَعَالَى: (كُلُّ مَنْ عَالِيهَا فَاَنَّهُ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ).

وقوله تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ).

وقال جل وعلا: (مَدَّ خَلْقُ الْمَلَكِ فَارُونِي مَدَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

وقال: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ).

وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ).

وقال: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

وقال تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ).

لقد حصر الله تعالى خلق جميع الأشياء من العدم على نفسه، ونفى قدرة غيره على ذلك وحكم على جميع مخلوقاته بالفساد، وعاب على من تنكر لعبادته وعبد غيره، فقال تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) وقال: (قَالَ لَهُ مَنِ اسْتَرْكَأَئْتُمْ مَنْ يُبَدِّئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَآَنِي تَوْفَّكُونَ). فلا مجال إذا للقول بأن الكون خلق من صدفة، أو أنه أزلي. وقد اعترف كثير من علماء الغرب الماديين بذلك، ونقل سيد قطب - رحمه الله - عن كثير منهم أقوالاً صريحة في ذلك منها:

قول فرانك ألمان: (إذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة فما تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة). ثم أبطل القول بنشأتها صدفة، كما قام العالم الرياضي السويسري (تشارلز جف جاي) بحساب هذه العوامل الافتراضية جميعاً فوجد أن الفرصة لا تنتهى عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد، إنما بنسبة 1 إلى 10 مضروباً في نفسه 160 مرة — وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات - وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة المفترضة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها - عن طريق المصادفة - بلايين لا تحصى من السنوات قدرها هذا العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في 243 مرة من المئتين. ويقول (أيرفنج وليام) في مقال له بعنوان (المادية وحدها لا تكفي) ما نصه: إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عدد، وهي التي تتكون منها جميع المواد، كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة. ولما شك أن النظرية التي تدعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن - نظرية لا تقوم على أساس العلم المنطوق والإقناع.

ومن أقوى الأدلة على بطلان نظرية بقاء المادة وتطورها ضمن حركة آلية ذاتية - من الناحية العملية والعلمية معاً - أن علماء الدولة الشيوعية المادية في روسيا إبان قوتها لم يستطيعوا - خلال سنوات عديدة من البحث والتجارب - أن يولدوا خلية واحدة سواء كانت نباتية أم حيوانية رغم محاولاتهم الجادة المدعومة بإمكاناتهم المادية والمعنوية المتقدمة، وفي ذلك ما يكفي من الرد على فكرة أزلية المادة وعدم فنائها وتطورها ذاتياً أو عن طريق الصدفة، تلك النظرية الكاذبة الخاطئة.

هذا بالإضافة إلى أن المادييين يعترفون أن المادة مجردة عن العقل وأنها محكومة بقوانين ثابتة لا تتغير وهذا كاف في اعتبارهم بأنها مخلوقة غير خالقة، إذ كيف يكون الناقص المحكوم خالقاً؟ وصدق الله تعالى المائل: (مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَّاءَ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ أَلَسْتَ بِمُحَذِّذٍ لِقَوْمٍ غَضَبٍ عَلَيْهِمْ قَدْ نَفَذْتُ إِلَيْهِمْ غَضَبِي وَهُمْ يُرِيدُونَ الْإِنْسَانَ أَنْ خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَّاءَ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

).

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)
().

المهوامش:

- 1 - بيان جامع العلم وفضله، والمحلى بالأثار لابن حزم 1/72 المسألة 92.
- 2 - سورة الإسراء الآية 44.
- 3 - القاموس المحيط للفيروز آبادي في مادة (مدّ) 2/337.
- 4 - البارع في اللغة لأبي علي المقاري البغدادي ص696، وقوله : (الأعراب أصل العرب ومادة الإسلام) هذا جزء من وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كما في صحيح البخاري من حديث عمرو بن ميمون، انظر كتاب فضائل الصحابة في فتح الباري لابن حجر 7/61 ومسنند الإمام أحمد 1/51.
- 5 - المهادي إلى لغة العرب للأستاذ حسن سعيد الكرمي 4/172 في مادة (مدّ).
- 6 - انظر: الموسوعة العلمية العالمية 22/42 الطبعة الثانية 1419هـ بالرياض.
- 7 - انظر دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي 9/489.
- 8 - راجع: معجم المصطلحات العلمية والفنية (عربي فرنسي إنجليزي لاتيني) إعداد وتصنيف يوسف خياط ص 628.
- 9 - الموسوعة العربية العالمية 22/43.
- 10 - دائرة معارف القرن العشرين 9/419.
- 11 - الموسوعة العلمية الميسرة ل: نقولا شاهين، د. يوسف دياب، أحمد الخطيب، أحمد شفيق ص38:34.
- 12 - الموسوعة العربية العالمية 22/43.
- 13 - المنجد في الفيزياء إعداد نخبة من المختصين بإشراف المهندس مصطفى عاشور 1/5 ط مكتبة ابن سينا القاهرة.
- 14 - الموسوعة العربية العالمية 22/42.
- 15 - دائرة معارف القرن العشرين 8/489.
- 16 - دائرة معارف القرن العشرين 8/489.
- 17 - الموسوعة العربية العالمية 22/43.
- 18 - هم المنسوبون إلى المادة، وقد مر الفكر المادي بمراحل - من عهد اليونان فما تلاه - من نظرة فلسفية تقابل المثالية وانتهاء بالنظرة الإلحادية على يد هيكل وكارل ماركس القائل: (لا إله والحياة مادة) انظر الموسوعة العربية العالمية 22/47:48.

- 19- لسركين وباخرت ترجمة محمد المجدي ص 43،29،39.
- 20 - الإسلام ونظرية داروين للأستاذ محمد أحمد باشميل ص 27 المطبعة الثانية عام 1388هـ.
- 21 - الإسلام ونظرية داروين ص 32.
- 22 - سورة الرحمن الآية 26.
- 23 - سورة الطور الآيتان 35،36.
- 24 - سورة لقمان الآية 11.
- 25 - سورة الحجر الآية 86.
- 26 - سورة الملك الآية 2.
- 27 - سورة يس الآية 82.
- 28 - سورة القمر الآيتان 49،50.
- 29 - سورة النحل الآية 17.
- 30 - سورة يونس الآية 34.
- 31- أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوييا بكندا، في مقال له عن نشأة الحياة وهل هي صدفة أو قصد؟.
- 32 - انظر في ظلال القرآن 1155، 2/1154.
- 33 - انظر في ظلال القرآن 1155، 2/1154.
- 34 - وهو أستاذ حاصل على دكتوراه من جامعة إيوى، وأخصائي في وراثة النباتات، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان الأمريكية.
- 35 - في ظلال القرآن 2/1156.
- 36 - انظر فقه الدعوة إلى الله وفقه والنصح والإرشاد للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني 1/300 ط دار القلم دمشق 1417هـ.
- 37 - انظر دائرة معارف القرن العشرين 8/489.